الملجأ الاسلامي الأول

في عهد النبوة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

لله أنت يا رسول الله يا سيد المصلحين وإمام المشرعين ، لقد مضى على أتباعك المسلمين قرون طويلة مظلمة حجبت عنهم محاسن شريعتك ، وجعلتهم ينظرون إليها فيها وعلى أبصارهم غشاوة من الجهل ، فتبدلت أوضاعها عندهم ، وانحرفت عن سبلها المستقيمة إلى سبل معوجة ، وصار كل شيء صالح فيها إلى فساد ، وكل نظام جميل فيها إلى اختلال ، وكل مظهر نشاط فيها إلى كسل وخمول ، والإسلام دين إصلاح ونظام ، ولا بد لنا في نهضتنا الحاضرة من أن نرجع به إلى عهد نهضته ، حتى لا يعوق المسلمين عن النهوض عائق من ناحية دينهم ، وتسير فينا النهضة الدينية إلى جانب النهضة الدنية ، متعاونتين في الوصول بنا إلى الإصلاح المنشود

وها نحن أولاء نعالج الآن مشكلة السُّولة[1] التي انحرفنا فيها عن أوضاع ديننا معالجة مدنية ، ونضع في ذلك الأوامر تلو الأوامر ، والنواهي تلو النواهي ، فلا يفيد في ذلك علاج ، ولا ينقطع السُّولة عن هذه الحرفة الدنيئة ، لأنا نقتصر في ذلك على علاجها من ناحية القانون الوضعي ، ولا نحاول علاجها من ناحية الشرع السماوي ، ليعلم الناس أن دينهم لا يبيح لهم هذه الحرفة الدنيئة ، فيكف السُّولة عن تعاطيها ، ويكف الذين يتصدقون عليهم أيديهم عنهم

لقد ذم النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحرفة وشدد في الوعيد عليها ، ومدح الذين يتعففون عن سؤال الناس . ومما ورد في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفْطَنُ به فَيُتَصَدَّقُ عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس . وقوله أيضاً : لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خيرله من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، وقد

(١) السولة : الكثير السؤال

الحكم ويتمهل في إبداء الرأي حتى يطلع على ذلك كله ثم يصدر بعد ذلك حكمه .

٧ — وفي ختام مقالته جاءت عبارة غريبة لا أدري كيف أرسلها ، ذلك أنه يقول ، إن مما يحتاج إليه عالم الحديث (الرحلة في سبيله إلى من أحاط به خبراً ! !) .

وإني ولا مراء في الحق لم أكد أفهم ما هي هذه الرحلة التي يحتاج إليها علم الحديث في هذا العصر ! وكذلك لم أعرف إلى أي الأقطار تكون ؟ ومن هم أولئك الذين قد أحاطوا بعلم الحديث خبراً حتى نرحل إليهم ونأخذ عنهم !

إني لم أكد أعرف من ذلك كله شيئاً ، وإنما الذي أعلمه أن طلاب الحديث في القرون الأولى هم الذين كانوا يحتاجون إلى الرحلة ليتلقوا الأحاديث من أفواه الرجال إذ كانت سلسلة الرواية في هذه القرون متصلة ، والحفاظ يومئذ هم أوعية الحديث لا يوجد إلا عندهم ولا يؤخذ إلا عنهم ، أما الآن وقد انقصمت هذه السلسلة بتدوين الحديث وأصبحت الكتب هي المراجع الصحيحة للحديث — وهي من كل طالب على حبل الذراع — فإن هذه الرحلة قد صارت لا حاجة إليها ولا غناء فيها . على أن عهد الحفظ نفسه قد انقطع أثره منذ قرون ، حتى قالوا إنه قد ختم بالحافظ ابن حجر ، وانقضى على أثره عهد المحدثين .

وإذا كان الأستاذ أبو شهبة لا يرضى إلا بالرحلة فإني قد قمت بما يرضيه ورحلت في سبيل تصنيف هذا الكتاب إلى جميع الأقطار وقضيت في هذه الرحلة سنين طويلة اختلفت فيها إلى مئات من العلماء والمحدثين والأصوليين والمؤرخين ومن إليهم[1] ممن يؤخذ عنهم ويستفاد منهم لكي يأخذ كتابي حظه من التمحيص والتدقيق وقد اصطنعت في سبيل التلقي عنهم الصبر والأناة حتى ظفرت منهم بما أرجو أن يكون عملي به موفقاً صالحاً إن شاء الله ، وما آمل أن يجد فيه كل من ينشد العلم والحق ما يحبه ويرضاه .

محمود أبو ريه

(١) بلغت أسانيد هذا الكتاب أكثر من مئة وخمسين كتاباً وبعض هذه المراجع يقع في أجزاء تبلغ العشرات وهذا غير ما نقلت عنه هذه المراجع وسيحمل كتابي أسماء هذه الأسانيد كلها إن شاء الله

عالج الإسلام هذه المشكلة بعد منعه لها معالجة إيجابية ، لأنه لا يصح أن يمنع المحتاجين من السؤال ويتركهم يتضورون جوعاً ، أو يشقون فى الحياة بجانب غيرهم من أهلها ، فسَنَّ الصدقة وفرض الزكاة على الأغنياء ، وجعل من وظيفة الحكومة جمع الزكاة من أهلها ، وصرفها على من يستحقها من الفقراء ونحوهم ، فوقاهم بذلك ذل السؤال ، وحفظ لهم كرامتهم ، لأنهم لا يأخذونها من الحكومة امتنانا ، وإنما يأخذونها حقاً تقتضاه لهم من الأغنياء ، وتقوم فيه بوظيفة الوسيط بينهم .

ولما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة منعهم المشركون أموالهم فى مكة ، فأصابهم من ضيق العيش فى المدينة ما أصابهم ، وعانى كثير منهم من شدة الفقر ما عانى ، وهم أبناء سادة قريش وأشرافها ، ولا تسمح لهم عزتهم وكرامتهم أن يمدوا أيديهم إلى الناس بالسؤال ، فأنشأ لهم النبى صلى الله عليه وسلم ملجأ يجمع شتاتهم ، واختار له مكاناً متواضعاً بمسجد المدينة ، وكان موضعاً مظللاً من ذلك المسجد ، فسماه من أجل ذلك سُفَّة ، واشتهر هذا بين أصحابه بأهل الصفة ، وكانوا نحواً من أربعمائة رجل من مهاجرى قريش ، لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشائر ، فآواهم النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك المكان ، وكان بهذا أول ملجأ اتخذ للفقراء فى الإسلام .

وكان لهذا الملجأ نظامه فيمن يدخله من الفقراء ، فكان يدخله منهم إلا الفقير الذى لا يستطيع ضرباً فى الأرض يكسب ، فلا يجد من كسبه ما يغنيه عن قبول الصدقة فى هذا الملجأ من المسجد ، وقد جاء هذا الشرط فى وصف الله تعالى لفقراء المهاجرين الملجأ فى الآية — ٢٧٣ — من سورة البقرة (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) .

وكان من نظامه أن جُعِلَ مدرسة لأولئك الفقراء ، وكان مدرسة ليلية يتعلمون فيها القرآن وغيره من العلوم ، لأن لهم عملا فى النهار سيأتى بيانه بالنهار ، وبذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم أول من جعل من الملاجئ مدارس ، لتكون دور علم وتعليم ، وينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم ، ولا يذهب ما يتصدقون به عليها سدى .

وكان من نظامه أن جعل لهم عملا بالنهار ينفقون منه على أنفسهم ، ولا يكلهم إلى الصدقة التى يتصدق بها عليهم ، لأنها لم تكن مورداً دائما ، بل كان من عنده فضل من المسلمين أتاهم به إذ أمسى ، ولأن الإسلام دين عمل وجهاد ، فلا يرضى لفريق من أهله أن يقعد عن العمل ، ويتكل على ما يتصدق به عليه الناس . فكانوا يخرجون بالنهار فيجمعون النوى ، ثم يرضخونه ويبيعونه لأصحاب الجمال .

وكان من نظامه أن جعل منهم جنداً للمسلمين ، فكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى كل غزوة يغزوها بنفسه ، فيكون شأنهم فى ذلك شأن كل مسلم ، ولا ينقطعون إلى ملجئهم كما ينقطع الرهبان إلى صوامعهم .

ولقد قام هذا الملجأ يؤدى عمله على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم تولى الخلافة أبو بكر رضى عنه فأبقاه على حاله التى كان عليها ، ثم تولى بعده عمر رضى الله عنه ، فاتسعت فى عهده الفتوح ، وفتحت للمسلمين خزائن الفرس والروم ، وصارت أسباب الغنى سهلة ميسرة ، فأمر رضى الله عنه بإغلاق هذا الملجأ ، وأمر أهله أن يسلكوا تلك السبل الميسرة للغنى ، لأنه لا يرضى بالفقر إلا أهل الخمول والكسل ، والدنيا دار جهاد وعمل .

ومن ينظر إلى نظام هذا الملجأ يجد أنه هو النظام الذى تأخذ به الأمم الحديثة فى ملاجئها ، لأنه هو النظام الذى يتفق وأسباب المدنية التى تأخذ بها ، ولكن المسلمين حين انحرفوا عن دينهم بعد ضعفهم ، تغير نظرهم إلى هذا الملجأ كما تغير نظرهم إلى غيره من أمور دينهم ، فاتخذوه أساساً لما أنشأوا فى تلك القرون المظلمة مما سموه تكايا وخانقاه ، وأخذ أهلها من الصوفية يتمسحون بأهل ذلك الملجأ ، ويزعمون أن اسمهم مشتق من الصُّفَّة التى كانوا يأوون إليها ، على بعد ما بين اسمها واسمهم ، وعلى بعد ما كان من نظام أهلها ونظامهم ، وعلى أنه كان نظاماً زال بزوال سببه ، ولم يرضه عمر رضى الله عنه لأهله ؛ ومثل عمر يؤخذ الدين عنه .

عبد المتعال الصعيدى